البـــــلاء داء أم دواء

تتغيّر أحوال الناس غالبًا بحسب المعطيات التي تترادف، فدوام الحال من المحال، وليس من الممكن أن يكون التغيير نحو الأفضل دائمًا، فكثير منّا قد يقع في فخّ الأموال والقوة والسلطة والجاه والصحّة فينغرُّ بنفسه حتى يقع ضحية هواه، فيفوته الغنى الذي إياه طلب و يدركه الفقر الذي منه هرب، ولا أعني تفسير الغنى والفقر بالماديّات بقدر ما يهمّنا البعد المعنويّ الذي لا يلتفت إليه عامّة الناس، وقد يُلزمه البلاء للرجوع عن غيِّه وتغيير حاله نحو الأفضل بمعرفة حاجته إلى رحمة الله تعالى ورعايته.

إنّ لوجود البلاء والمصائب في حياة الناس أثرًا كبيرًا في رقيِّه وتقدّمه العلمي والأخلاقي؛ ولذا فإنّ الشرور العارضة خاصّة والطارئة قد تكون من مصلحة الإنسان، فمثلًا نحتاج أحيانًا إلى إجراء عملية جراحية معينة من أجل العلاج ونسعى إليها وندفع الأموال للأطباء وقد نطلب التعجيل بها؛ لأن فيها سلامتنا، فنحاول أن ندفع البلاء الكبير الذي يهددنا ببلاء صغير كأن تكون بعملية جراحية أو كورس علاج أو غير ذلك من أنواع الابتلاء، ولا يُعدّ ما نقدّمه من المال أو الأوجاع بلاء؛ لأن فيه إنقاذ أرواحنا، فندفع الضرر الكبير بالصغير وهذا منطقي في محاولات العلاج المختلفة.

والناظر إلى البلايا يجد أنها من الوسائل التي قد يحفّز الإنسان على العطاء وكشف الطاقات العلمية، فكل ما كان من التقدّم في المستويات المختلفة الطبية والهندسية والفنية والبناء والأعمار إنما كان بدافع الحاجة، والحاجة دفعتنا إلى التفكير فأبدعنا وبذلك قالوا: الحاجة أم الاختراع، ومن جانب آخر فإن المصائب تمثّل جرس إنذار ولاسيما في المجالات الطبية، واليوم نسمع بعد جائحة كورونا العالم مشغول بأكثر من مئة وخمسين نوعًا من اللقاح من أجل مقاومة الجائحة، وهذا بحدّ ذاته

مؤشّر إيجابي على التغيير نحو التقدّم الطبي والعلمي، ومما زاد اهتمام الناس ومخاوفهم أن بعض الأمراض قد لا نشعر بها إلى أن تتمكّن من أصحابها كالسرطان -العياذ بالله- وكذلك كورونا مما دفعنا إلى الاحتراز منها بالوسائل التي يمكن أن تدفعها عنا.

والذي يهمنا أن نقف عليه هو أن الحاجة والحرمان دليل النقص، فبعد أن يصاب الإنسان بداء العظمة والتكبّر لعلّه يحتاج إلى الشعور بالحرمان والحاجة لرجوعه إلى الصفات الحميدة التي فطر الله الناس عليها وأبعدهم عنها الغرور والطغيان، وحاجة الإنسان إلى أخيه أو إلى غيره يجعله متواضعًا وهذا الأثر يعزّز البُعد الأخلاقي الذي لطالما أكّد الإسلام على ضرورة الالتزام به حتى جاء في الأثر الطيب: إنما الأمم بأخلاقها، والأخلاق الحسنة كفيلة برجوع العبد إلى ربه بعد أن كان متماديًا في الضلال والفساد، ولا يخفى أيضًا على كل ذي لُبٍّ أن الأمور إذا كانت مهيّأة كلها للإنسان لطغى كما قال تعالى: {إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦-٧]، هذه الحقيقة لابدّ أن نعترف بها، فلولا الموت والفقر والمرض لما طأطأ الإنسان رأسه أبدًا. وبذلك فإنّ البلاء طريق السعادة والتكامل الأخلاقي والروحي وسبيل الهداية والصلاح ويستلزم شكر الله على كل بلية؛ لأنها منهج السعادة ولو بعد حين.